رفات تبخر إلى الجنة

بقلم

أحمد بسيوني

المكان: شبه جزيرة سيناء (الضفة الشرقية من القناة)

الزمان : ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣

بعدما انتهت الحرب كنا تائهين في منطقة منعزلة من أرض سيناء.. منطقة عسكرية قديمة تركها الإسرائيليون وكانت معسكر لهم، وعشنا على المؤن التي معنا حتى نفدت، وانتظرنا فرق الإنقاذ أن تأتى أو حتى فرد من الأعراب في المنطقة وأجهزة الإشارة واللاسلكي توقفت عن العمل بعد نفاد شحن البطاريات، وخشينا المشى في المكان حتى لا نقع أسرى للإسرائيليين أو نكون ضحايا للألغام المضادة للأفراد، وكانت خشيتنا من الأسر أكبر من خشيتنا للألغام؛ لأن الإسرائيليين الجيش الوحيد في العالم الذي لا يتورع عن قتل الأسرى وكنا نعلم أنهم قتلوا أسرانا في ١٩٦٧ ودفنوهم في سيناء.

كنا في منطقة جبلية وكان المعسكر به خزان مياه ضخم جدًّا ومكسور من طلقات المدفعية التي أطلقها الجيش المصري في أول أيام الحرب وكانت سببًا في هروب الإسرائيليين وفرارهم من المعسكر. كنا نذهب كل يوم نملأ الجراكن ونشرب ونستحم من مياه الخزان. ونأكل أي شئ حتى ورق شجر، أرنب جبلي أو حتى ثعابين أو فئران جبلية كنا كوماندوز (صاعقة)، وكنا مدربين على العيش في

ظروف قاسية جدًّا حتى أتى يوم ذهبت أنا وسامي فوجدنا الخزان قد انخفض مستواه، والخزان كان تحت الأرض، ولم يتبقَ على قيد الحياة إلا ثلاثة من عشرة رجال صاعقة خرجنا في مهمة خاصة جدًّا. نزل سامي لملء الجراكن فانزلقت قدماه ووقع في مياه الخزان فمددت له يدي ولم أستطع إنقاذه؛ لأن الأرض كانت زلقة جدًّا، وكلما مددت يدي لإنقاذه انغمس في الأرض أكثر، ولم أرد أن أتركه وظللت ممسكًا به من كم الجاكيت، ولم أرغب فى تركه وعندما شعر أنه سوف يشدني معه ونغرق نحن الاثنان قطع كم الجاكت بالسونكي المثبت في بندقيته، وغرق ونزل في المياه بعد أن فعلت المستحيل لإنقاذه، ورجعت لزميلي الآخر وحكيت له كل شيء، وظللت أبكي حتى منتصف الليل، وغرقت فى النوم من الإرهاق، ولم أفق حتى رأيت الشمس فوق رأسي، وكان زميلي قد سبقني عند أول ضوء للصباح للبحث عن سامي في الخزان ومحاولة انتشال جثته فلم يتمكن لصعوبة المكان.

وتوقفنا عن الشرب من الخزان بعد غرق سامي وظهور جثمانه الطاهر بعد عدة أيام، وحاولنا المستحيل لانتشال الجثمان بأي وسيلة فلم نستطع؛ لأن الخزان كان تحت الأرض وفوقه دشم مدمرة حتى زميلي الآخر عندما تجرأ وحاول النزول لانتشال جثمان سامي لم يستطع وأنقذته بمعجزة.

كنت أمر علي الخزان أنظر للجثمان الطاهر من بعيد وأقرأ ما تيسر من القرآن وأكلم سامي كالمجنون... كان مقاتلًا شجاعًا وعنيدًا وتذكرت الأشهر السابقة للحرب عندما ذهبنا في مهمه خلف خطوط العدو، واختار التوقيت في طقس عاصف جدًّا شديد البرد؛ لينفذ

مهمته، وذلك لأن العدو كان يخفف إجراءاته الأمنية في أوقات الطقس السيئ؛ لاستحالة تسلل أحد من المصريين في تحليلاته الساذجة، ثم يفاجئ سامي العدو بمهمته، ويعود مظفرًا باسمًا، ونسمع بعد عودته انفجارات هائلة في معسكرات العدو وسامي سالم بعد عودته، لم يُجرح حتى إصبع قدميه أو يديه، ولكن الموت ادخره وكَمن له في هذا الخزان العجيب؛ لينال الشهادة.

العجيب أنني كنت أمر كل يوم على الخزان، ولم يتحلل الجثمان، وظللنا علي هذا الحال عدة أيام، وفقدنا مصدر المياه الوحيد بعد غرق سامي، فقد كنا غير قادرين على استعمال المياه بعد غرقه، وشربنا من الندي.

وكنا نأكل أي نبات أو حيوان موجود في الصحراء، ومات زميلي ميشيل - وهو الوحيد الذي تبقي معي - مات من حمي شديدة ألمت به، وسهرت به يومين أضع له كمادات من أقراص كحول تبقت معنا، وكنا نستلمها كتعيين لصنع الشاى عليها بعد إشعالها، ولم أجد له أي دواء سوى بعض أعشاب الصحراء تعرفنا عليها من تدريبات الصاعقة؛ تخفض الحرارة، وفعلت المستحيل لإنقاذه، ولكن دون جدوى، ودفنته في ملابسه ولم أستطع تلاوة صلواته الخاصة به كمسيحي عند الدفن فصليت عليه صلاه الجنازة. وتذكرت حكاياته عن بلدته السباعية التابعة لمحافظة أسوان، وتذكرت اعتزازه ببلده السباعية مازحًا: «بلدنا السباعية لا تنجب إلا أسود وسباع».

وتذكرت حكاياته عن القصب والريف والنيل، وهوايته في اصطياد الثعابين، والتي كانت سببًا في دخوله الصاعقة. والعجيب

أن سامي كان من الإسكندرية من حي كرموز العتيق، وميشيل من السباعية من أسوان، وكنت أنا من سوهاج، كنا عنوان لمصر بطولها وعرضها. وظللت وحدي وأيقنت أنني هالك لا محالة فحفرت قبري بجوار زميلي ميشيل ووضعت عليه شاهد به اسمي بالكامل، وبلدي، ومعلومات كافية لمن يجد قبورنا تمامًا كما صنعت لزميلي ميشيل، وكنت أمر على الخزان كل يوم حتى حدثت مفاجأة...

إن جثمان سامي قد اختفى تمامًا، ولا أثر له مطلقًا، ونظرت للخزان من كل الجوانب فلم أجد شيئًا مطلقًا... يا إلهي أين جثمان سامي؟ هل تبخر؟ هل صعد إلى السماء؟ الغريب أنني وجدت المياه رائقة على غير العادة وكأنها منحدرة من جدول صافٍ، والأكثر غرابة ومفاجأة أنني وجدت شجرة زيتون صغيرة نبتت عند مدخل الخزان.

نحل جسمي من قله الطعام وأدركت أنني ميت في نهاية الأمر، وصرت لا أستطيع الحراك فذهبت إلى قبري الذي حفرته بجوار قبر زميلي ميشيل، ونطقت الشهادتين وانتظرت الموت يتسلل إلى جسدي الذي حسبته يومًا حصينًا، وذهبت في غفوة حتى أفقت على شيء يتحسس صدري ويسمع دقات قلبي.. يا إلهي هل مت فعلًا؟ وهل هذا ملك كريم يبدأ في حسابي؟ ووجدت من يهزني بشدة... هل هو الحساب؟ نعم إنها هزة القبر، واستعددت لأول أسئلة وأجبت دون أسمع أي سؤال:

«ربى الله، ودينى الاسلام، ومحمد نبي ورسولي»، ولكن فتحت عيني بصعوبة على أعرابي ضخم الملامح يناديني:

«يا زلمة... يا زلمة! هل تسمعني؟».

فأجبت بصوت خافت:

«ن ن ن نعم».

فرد الأعرابي:

«أفق يا دفعة! لا تخف أنا مصري مثلك، وأنت في أمان».

فجلست في قبري ونظرت إليه أكثر، وأشرت له بالعطش فأحضر قربة ماء من فوق ناقته، وبلل شفتاى، ثم سقاني بعدها بقليل، فاستردت عافيتي، وشعرت بحلاوة المياه التي لم آذقها منذ أسبوع، وأطعمني الأعرابي من طعام كان معه خبز وجبن مصنوع من لبن الضأن، فأكلت كل ما معه من الطعام من شدة الجوع، وحكيت له قصتي كاملة، وقصة سامي، وأشرت إلى قبر ميشيل، وركبت معه ناقته حتى قرية بدوية على مسافة بعيدة جدًّا ولا تظهر من الأفق... أكرمني الأعرابي وأخذني هناك إلى قبيلته السواركة، وحكيت حكايتي لهم بالتفصيل مرة ثانية، فأخذوني لمركز قيادة الجيش الذين أحضروا لي طبيبًا أعطاني بعض العلاجات والحقن المقوية والواقية، وأمليت لهم اسمي بالكامل: جندي مجند صاعقة عبد الباقي نصر الضبع، ورقمي العسكري ٦٣١٠٠٠٠٠٠، والمفاجأة أنني عرفت بعدها أن القرية البدوية كان يعمل بها أعراب لحساب المخابرات المصرية قبل الحرب، وأن قبائل السعديين والدواغرة والبياضية والعقالية والعيايدة والمساعيد كانوا كلهم علي اتصال بالمخابرات المصرية قبل الحرب، وكان لهم دور هام في تدمير مراكز الإنذار المبكر التي أقامها الإسرائيليون؛ لمعرفة مؤشرات أي حرب قادمة، كما كان لهم دور في معرفة حقول الألغام، ونوع التسليح، وتحركات الجيش الإسرائيلي، ونقل كل هذه المعلومات لمركز القيادة بالقاهرة...

أرسل الجيش معي رجال المخابرات والصاعقة والضفادع البشرية، وأرشدتهم عن قبر زميلي ميشيل فأمروا بإحضار لجنة من الكنيسة لنقل جثمانه إلى أسوان؛ لدفنها وإجراء مراسم الدفن المعتادة للشهيد ميشيل، وذهبت معهم إلى الخزان لإخراج جثمان سامي، ولكن المذهل أنهم لم يجدوا أي أثر للجثمان الطاهر.

لقد اختفت الجثة تمامًا، ونزل رجال الضفادع البشرية وفتشوا كل شبر في الخزان فلم يجدوا شيئًا، ولم يجدوا له أثرًا حتى أنهم أرسلوا مياه الخزان للقاهرة لتحليلها، فلم يجدوا فيها أي خلايا بشرية، ولم يجدوا أي أثر، أو حتى دليل على أن الجثمان تعرض لنهب حيوان مفترس أو طيور جارحة، ولا حتى أثر لبزته العسكرية أو حذائه، وقدم رجال الإنقاذ تقريرهم المعتاد بعد أن نقلوني للقاهرة ثم بلدي الحبيبة سوهاج، وبعد أن كتبوا تقريرهم المعتاد والذي يفصلون فيه إجراءات البحث والخطوات التي اتخذوها ذيلوا تقريرهم بجملة غير تقليدية:

«لقد بحثنا عن الشهيد سامي طاهر عيسي في كل شبر من الخزان الذي غرق فيه، وشاهده فيه زملاؤه، فلم نجد أي أثر لجثمان الشهيد، ولا حتى أي دليل يدل عليه، وكأن جثمانه تبخر إلى السماء!!».

***